المقدمة

الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادى له، ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، ونشهد أن محمداً عبده ورسوله؛ أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله، وكفى بالله شهيداً، أرسله بين يدى الساعة بشيراً ونذيراً وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، فهدى بنوره من الضلالة، وبصَّر به من العمى، وأرشد به من الغى، وفتح به أعيناً عمياً، وآذانا صماً، وقلوباً غلفا، صلى الله عليه وعلى آله وسلم تسليماً كثيراً،

أما بعد....

فإن تحرى العدل خلة محمودة، وخصلة ممدوحة، وهى منوطة بالقاضى الذى ينظر فى الوقائع، ويمحص الدعاوى ويمحض البينات، ويقوم الشهادات ويفرق بين المطبوع والمصنوع، وبقوة فراسته، وإجالة الأمر فى خاطره وثقته بالله، وتوكله عليه، واستعانته به يقدر على دفع زيغ المدخول، وبنباهته، وعمق بصيرته ونفاذها يدحض تداعى الأوهام والتدليسات ويدحض انتحال المبطلين وإسراف الغالين.

إن المتأمل المستقصى فى أمر الشريعة، وتمامها وكمال منهجها يرى عجباً من حرصها على مصالح العباد، والمحافظة على الأموال والأنفس والأرواح، وعنايتها غاية العناية بما يصلح الناس فى معاشهم ومعادهم، وتحريها الإنصاف والعدل والقسط والسوية فى إقامة الحق فى أرفع وأزهى وأنقى صوره بين الخلائق والغرماء.

إن شريعة تدرء الظلم بالانتصاف من الجائرين لإنصاف المظلومين الحائرين؛ لهى شريعة نزيهة حكيمة لا عدلَ فوق عدلها، ولا قصَد أشرف من مقصودها يشهد لها الجَدلُ الممارى، والخصم غير المدارى، والذى يفقهها حق الفقه، ويدرك عظمتها كل الإدراك لا يمكن أن يعدلَ بها، أو يعدل عنها أو يعول على غيرها ألبتة.

إن شريعة مثل هذه الشريعة الإسلامية نسخت كل ما عداها وسبقها من شرائع لتمامها وكمالها وتناولها كل حركات البشر وسكناتهم بما قصرت عنه دعاوى المضللين، وانتحالات المبطلين، وبكل ما جاءت به من قيم وضوابط إنسانية وأخلاقية هى فى مجملها منهج سعادة وتوفيق وتمكين فى الدنيا والآخرة.

قال تعالى: ﴿ **وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ** ﴾[١].

والآية توجه أولى الأمر من الحاكمين أن يعدلوا فى الحكم بين الناس على العموم وليس بين مسلم ومسلم على جهة الخصوص وكان يحكم قضاة المسلمين لصالح غير المسلمين ضد غرمائهم من المسلمين ضاربين بذلك أروع الأمثلة فى تحرى العدل والسوية.

ويؤكد هذا المضمون فى قوله تعالى: ﴿ **وَإِنْ حَكَمْتَ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِالْقِسْطِ** ﴾[٢].

ثم ينهى عن اتباع الهوى ويؤكد على لزوم الحق وحتمية اتباعه فى قوله عز من قائل: ﴿ **فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى** ﴾[٣].

وهذا خطاب كسابقه مُوَجهْ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وما أولى أن يتبعه أتباعه من أمته الذين يلَونُ أمور الناس، ويتصدون للفصل فى منازعاتهم وقضاياهم. ولإشاعة الاطمئنان فى نفوس المظلومين فى الدنيا الذين يتظاهر عليهم الحال والمقال. يقول تعالى: ﴿ **فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** ﴾[٤].

ومتى كان الحاكم فى الموقف هو الله تعالى فلا يجب أن يحزن مضرور فاته شىء فى الدنيا[٥]. وقيل: إن (بينكم) فى الآية المراد بها «بين المؤمنين والمنافقين» ولئن كان ذلك، فإن خصوص السبب لا يمنع من عموم النص.

---

(١) النساء (٤/ ٥٨).

(٢) المائدة (٥/ ٤٢) راجع ماقاله ابن كثير فى مختصره (١/ ٥١٩).

(٣) ص (٣٨/ ٢٦).

(٤) النساء (٤/ ١٤١) وفى هذا إسباغ للطمأنينة فى نفس المهضوم حتى لاييأس من روح الله، فإن فاته العدل والنصفة فى الدنيا، فليعلم أن حقه محفوظ مذخور فى الآخرة يأخذه عند أحكم الحاكمين ووعده الحق.

(٥) راجع أقوال العلماء فى تفسير القرطبى، الجامع لأحكام القرآن (٥/ ٤١٩). راجع تفسير الآية أيضاً فى مفاتيح الغيب للرازى (١١/ ٨٤).

obeikandl.com

ليس هذا فحسب، ولكن رسول الله صلى الله عليه وسلم أيضا مأمور بأن يصبر حتى يحكم الله، قال تعالى: ﴿وَاتَّبِعْ مَا يُوحَىٰ إِلَيْكَ وَاصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ اللَّهُ﴾[١] ثم يقول: ﴿وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ﴾[٢] وفى الآية ابتداء وخبر[٣].

إن كل شيء مختلف فيه فى الدنيا ولا يستطاع حسم الأمر فيه، والقطع والجزم على سبيل اليقين مرجوع ومردود إلى الله سبحانه وتعالى، لأن علمه عز وجل غير محتاج إلى أدلة ولا بينات؛ لأنه يعلم السر وأخفى، ويعلم ما نبدى وما نكتم، فهو بقدرته غير المحدودة، وعلمه المطلق الأزلى يفصل بالحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

وإذا وقع التدليس على القاضى فى الدنيا، وقضى على غير الحق بعد إفراغ الجهد، وخلوص النية، وصفاء الطوية، فإنه أولى أن يكون معذوراً طالماً كان برئياً من نزغ الشيطان ومن الهوى والجهالة.

أما المحكوم عليه وهو برىء، فلا بد أن يطمئن بالاً ولا يضيق ذرعاً، فقد قرر القرآن قضية رد الحق إلى أهله، ورجوع المظالم إلى أربابها. قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[٤].

وقال أيضا: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فِي مَا هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ﴾[٥].

* * *

وورد عن الحسن ـ رضى الله عنه ـ: إن الله أخذ على الحكام ثلاثاً:

أن لا يتبعوا الهوى، وأن يخشوه ولا يخشوا الناس، ولا يشتروا بأياته ثمناً قليلاً، ثم قرأ: ﴿يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ﴾[٦].

---

(١) يونس (١٠/ ١٠٩) قيل: نسخ بآية القتال، وقيل: ليس منسوخاً، ومعناه اصبر على الطاعة والمعصية.

(٢) يونس (١٠/ ١٠٩).

(٣) قال القرطبى (٨/ ٣٨٩): «ابتداء وخبر؛ لأن الله عز وجل لايحكم إلا بالحق» أهـ. بتصرف.

(٤) الحج (٢٢/ ٦٩) انظر التفسير الكبير للرازى (٢٣/ ٦٦، ٦٧).

(٥) الزمر (٣٩/ ٣). راجع حاشية الصاوى على الجلالين (٣/ ٣٦٦).

(٦) راجع التفسير الكبير للفخر الرازى (٥/ ١٤٥).

obeikandl.com

من ثم كانت مهمة القاضى عسرة شاقة مضنية، فلا بد أن يكون فقيها بطبائع النفوس وغرائزها، خبيرا بنزعاتها ومشاربها، عالماً بالدلائل والإشارات، مترجماً للأمارات ودلائل الحال، ودلائل الاقتضاء، فاهما بحركات الخصوم وسكناتهم لمعرفة حقيقة المبتغى المقصود وراء ذلك.

ولا بد من الفقه فى الدين، وقوة اليقين والبصر والتبصر فى القرائن والأدلة والترجيحات بين القرائن والدلائل والبراهين ودفع المظنون بالمقطوع به ودفع المرجوح بالراجح، ورد المشكوك فيه بالظاهر الثابت، ولا تكتمل أداة الحاكم بشىء من هذا إلا بالتوكل على الله، مع نزاهة النفس، ورضاها واطمئنانها وتبرئة القلب من أرجاس الهوى، وأوضار المعاصى، ونزوات الشهوات وزيغ الضلوع وفقه الأحكام.

فمن فاته حظ من هذه العدد القيمة، فقد خسر خسراناً مبيناً، وأوبق نفسه، وأوردها موارد لا صدر لها، من الهلكة والتدمير، وليس هناك جرم أكثر ولا حوب أشد، ولا ظلم أبين ممن يقيم باطلاً، ويهدر حقاً، ويدفع غير مدفوع، ويدحض صادقًا ويرفع موضوعاً، ويضع مرفوعاً.

إن شريعة الإسلام بريئة من الظلم، منزهة عن التعدى، وكيف يكون فيها شىء من هذا وهى التى تنهى عن الظلم وعن التعدى، وتتوعد الظلمة الفسقة الفجرة بأقسى أنواع الانتقام والهوان فى الدنيا قبل الآخرة؟؟!!

* * *

إن رسول الله صلى الله عليه وسلم المبلغ عن ربه ما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحى يوحى، كان قرآناً يمشى على الأرض، لم يترك باباً من أبواب الخير لأمته إلا فتحه، وأرشد إليه، ونبه عليه وحضّ علو سلوك سبيله... وما من باب من أبواب الشر إلا أرتجه وأوصده، ونهى عنه، وحذر منه، وأوعد على الاقتراب منه، بل وذهب إلى أبعد من هذا بسد الذرائع إليه.

لقد عرضت عليه صلى الله عليه وسلم أقضية وأمور ومشكلات فكان يقضى فيها بكتاب الله تعالى، وبسنته الشريفة المكرمة، وعلى هدى من مشكاة بنوته الصادقة التى جاءت رحمة للعالمين؛ فانتشلت البشرية من جهالات التردى التى ظلت ردحاً طويلاً ترزح تحت نير الظلم والاستعباد والضراعة لغير الله قبل الإسلام.

كان صلى الله عليه وسلم مثالاً ونموذجاً وطرازاً يتيماً من فطرة نقية، ودخيلة تقية، وطبيعة مطبوعة على الخير المحض، والبر الخالص، وحسبه قول الله تعالى فيه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ لذلك لم يكن بدعاً ولا عجباً أن يدعم أصول العدل والقسط والحق، وهو القائل: «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها» فهذا هو العدل المطلق والمساواة الحقيقية، وعدم التهاون فى حدود الله، وعند تقسيم الغنائم يميز أقواماً على أقوام، ولكنه ليس بتمييز عشوائى شخصى، وليس نابعاً من عاطفة أو هوى، ولكنه فعل محكوم بقوانين، وضوابط أصولية ونفسية مرعية ضابطة، فإن قوماً قد تمكن الإيمان من قلوبهم ونفوسهم فوكلهم إلى إيمانهم، وثمة آخرون كانوا حديثى عهد بالدين، فرأى أن يتألف جانب الخير فيهم فأكثر إلطافهم، وعطاءه لهم، وظن غير الفاهمين الظنون، فلما أدركوا حقيقة الأمر ثابوا إلى الحق؛ لأنه قديم مجرد أن وقفوا على العلة ومناط التمييز والترجيح، فرضى الله عنهم أجمعين.

كان صلى الله عليه وسلم أكثر خلق الله حبا لله، وحسبه أن اصطفاه الله تعالى ليكون مبلغا عنه وأن يكون خاتم أنبيائه ورسله، ولذلك فإنه خير من أقام العدل، وحضَّ عليه، وقاوم الحيف والجور والعسف والتعدى، والتمادى فى الباطل واللجاجة بالزور والبهتان لذلك كان التخرص والإرجاف مبهوتا مقموعاً مقدوعاً ففى كل القضايا والمشكلات المعروضة عليه صلى الله عليه وسلم قرر أصولاً وقواعد شرعية وأصولية وفقهية، فما من حكم قضى به إلا كان صوابا محضاً، وخيراً ونفعاً للمقضى له وللمقضى عليه، حتى لا تضيع حقوق على أربابها، وحتى تبرأ ذمة الغرماء قبل يوم اللقاء، يوم لا ينفع نفسا إيمانها لم تكن أمنت من قبل.

وقد صنف الإمام العلامة الشيخ المحدث أبو عبد الله محمد بن فرح المالكى القرطبى كتابا عن الأقضية، ذكر فيه ما انتهى إليه من أقضية رسول الله صلى الله عليه وسلم، التى قضى فيها وأمر بالقضاء فيها.

وقد أخذ الإمام ابن قيم الجوزية كثيراً من أقضيته وأحكامه وزاد عليها فوائد فقهية، واستنباطات أصولية دقيقة، ثم توسع فى الشروح والتحقيقات لعيون الأقضية والمسائل بياناً شافياً لا مزيد عليه.

وقد توفرنا على هذه الأقضية والمسائل وحققناها ودققنا فيها، وضبطناها وعزونا كل فرع لأصله، ورجعنا كل سبب إلى سببه، ووصلنا العقد المنظوم ببعضه البعض، مستدركين ما هيَّأ الله تعالى به، مختصرين كثيراً من فضول وإسهابات كثير من الشراح والمحققين، مع عرفان الفضل لأربابه وذويه ممن أسهموا فى هذا المضمار، فنسأل الله تعالى أن يجعل أعمالهم الصالحة المبرورة فى ميزان حسناتهم.

ماذا عساى أن أقول وأنا أقدم جهد المقل، وليس لى فيه من يد سوى التنسيق والترتيب والتحقيق والضبط وأولاً وأخيراً حسن الظن بالله أن يغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب.؟

ومعذرة يا سيدى يا رسول الله. . . فإن لك علينا حقوقا كثيرة، ونرجو العفو والصفح والمسامحة فإن كان ثمة تقصير فهو من الشيطان ومنى وما أبرىء نفسى، وإن كان ثمة توفيق وتسديد فمن لطف الله بى ورحمته، وأفوض أمرى إلى الله، عليه توكلت وهو رب العرش العظيم.

السيد الجميلى

obeikandl.com